التصوير الفني

في القرآن الكريم

لسيد قطب

منذ نيف وثلاثة عشر قرناً تم القرآن، وأصبح المرجع الأول للمسلمين في أمور دينهم ودنياهم. وفي خلال هذه الفترة الطويلة درس القرآن دراسة لا بأس بها من نواحي التشريع، واللغة، والتاريخ. ولكنه لم يدرس من الناحية الفنية دراسة حقيقية.

ثم تناوله بعض الباحثين في البلاغة، وفي أولهم عبد القاهر والزمخشري، الأول في «إعجاز القرآن» والثاني في تفسيره «الكشاف». ولكن الدراسة الفنية الكاملة التي تتناول هذا الكتاب الكريم كمجلى لأبدع أسلوب عربي، وتكشف عما حوى من الجمال التصويري، وتشرح خصائصه الفنية، ولوازم أسلوبه، وحيوية تعبيره، وروحانية اتجاهه، هذه الدراسة الواجبة، لم توجد حتى اليوم، ومن الواجب أن توجد في القريب. والذي يلوح غريباً في هذا، أن الناحية المهملة، هي الناحية التي نزل القرآن من أجلها فميزة القرآن الأولى هي إعجازه الفني، وعلى هذا الأساس واجه العرب، وبهذه القوة كانت فتوحه في الصحراء. ولكن لا غرابة في الحقيقة. فالبحوث الفنية ترف عقلي ونفسي لا يكون في طفولة الأمم، ولا في أوائل نموها. بل يجيء بعد أن تستكمل ضرورياتها، وتكتفي من حاجاتها وتشبع بنيتها، ثم تأخذ في الترف، وقد فرغت من مطالب الضرورة.

فإذا هي عنيت بالنواحي الفنية قبل ذلك، فهي عناية المتملي، أو عناية المتذوق، أو عناية المأخوذ ولن تكون عناية الناقد الذي يحلل ويعلل ويحتاج إلى قدر لا بد منه من النضوج. لذلك عني العرب، وعني المسلمون بدراسة القرآن من وجهة التشريع أولاً، لأنه أهم عنصر من عناصر حياتهم اليومية. ثم عنوا بالنواحي اللغوية والتاريخية، وبعض النواحي الفنية، في أطوار متعاقبة من نموهم الطبيعي. ولعلنا اليوم قد صرنا إلى المرحلة التي نتناول فيها القرآن الكريم ككتاب أدبي، وننظر فيه من الوجهة الفنية الحرة، ونتملى ما فيه من جمال روحي غير مقيد بقيود الضرورة، ونحلل ما حواه من مذاهب فنية (1)

---

(1) وجه الأستاذ الفاضل محرر المقتطف نظري إلى أن التوراة والإنجيل طبعا في أمريكا ليدرسا دراسة أدبية بحتة. والقرآن بأسلوبه العربي أولى بهذا

جرّد القرآن — مؤقتاً — من قداسته الدينية ، وجرّده من انه كتاب تشريع ونظام حكم ، تجد فيه بعد هذا وذلك كتاباً أدبياً ، فيه فن ، وفيه جمال ، وفي كثير من أساليبه سحر خاص ، وخيال خصب . وطبيعي أنك لا تنتظر هذا السحر ، وهذا الخيال في كل آية وكل سورة ، لأن فيه ما هو تشريع ونظام حكم ، وفيه ما هو تاريخ وتسجيل ، وهذا وذلك ليس مستحسناً أن يكون فيهما سحر وخيال ، فانما يستمدان بلاغتهما من صفات أخرى . من الحكمة والسداد في النظم ، ومن الصدق والدقة في التاريخ . وفي القرآن صور فنية كاملة تحتاج تارة الى ريشة المصور الماهر ، تبرزها في مظهر خلاّب وتارة لقلم الروائي القدير ، يخرجها في قالب كامل وهي في كلتا الحالتين تتطلب خيالاً قوياً يتتبع صورها ويكمل اجزاءها التي حذفت عبارة كي تدع للخيال فرصة وفسحة يعمل فيها ويستثمر اللذة والجمال .

وهذا التصوير الفني في القرآن أربعة أقسام :

صور فنية مجردة ، وقصص فني تتتابع فيه الصور وتتلاحق ، ونوع بينهما هو الحوار يميل الى القصة تارة ، والى الصور المجردة تارة ، وتعبيرات فنية عن حالات نفسية ، أو مناظر طبيعية ... الخ

١ — صور فنية

١ — « والذين كفروا بربهم . أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده ، فوفاه حسابه والله سريع الحساب

« أو كظلمات في بحر لجيّ ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب : ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »

هنا صورة فنية ساحرة ، فيها روح القصص ، وفيها خيال قوي ، وهي بعد في حاجة إلى ريشة مبدعة لابراز الظلمات ، في بحر لجيّ ، « يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب »

وفيها متعة للخيال يتتبع هذا الظمآن ، يسير وراء السراب ، « حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » ووجد مفاجأة عجيبة لا تخطر على البال ، « وجد الله عنده فوفاه حسابه » . ثم يتتبع الظلمات ويتخيل الرجل الضال فيها « إذا أخرج يده لم يكد يراها »

ولست في حاجة الى تطبيق هذا المثل على « الذين كفروا بربهم » وبيان صدق تصويره لحالتهم ، فذلك بحث ديني ، لا يعني الناقد الفني كثيراً ، فانما نريد من الدراسة الفنية أن تستقل بنفسها ، وألا تقع في الخلطة التي وقعت فيها الدراسات السالفة ، وحسبنا أن ننوه عن الجمال الفني في الصورة ذاتها ، كتعبير أدبي مستقل

٢ — « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات

لا يبصرون. صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء، فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم، كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير»

ها هنا صور متتابعة، في كل منها خيال، ومجال لعمل الخيال. ولا سيما تلك الصورة الفريدة: «كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا» بعد التمهيد لها بأنهم «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت». ولو سجلت الصور المتحركة منظراً كهذا، بما فيه من الحركة والتنوع، لكانت موفقة جد التوفيق، فكيف والمنظر هنا تسجله الألفاظ، فلا تنقص منه حركة واحدة، تستطيع الصور المتحركة إثباتها. لا بل تبزها وتفضلها في أنها تدع متعة للخيال، وهو يخلق الصور ويمحوها، ويكمل الحركات ويتبعها، بينا الصور المتحركة تحرم الخيال نشاطه لأنها تبرز المناظر كاملة تعين، فلا يكون فيها من الجمال، إلا جمالها الذاتي.

٣ — «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون. إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، مهطعين، مقنعي رءوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء»

إنني لأطيل ترديد هذه الآية، واستحضار تلك الصورة، وهي صورة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام: «مهطعين. مقنعي رءوسهم. لا يرتد إليهم طرفهم. وأفئدتهم هواء»

أربع صور متتابعة متواكبة، أو أربعة أجزاء في صورة واحدة، وإن فيها لغذاء للخيال الخصب، وإن فيها لمتعة فنية رائعة.

٤ — وتقرب من هذه في الروعة، وتزيد عليها في قسوة الفزع: «إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد»

وعلى الرغم من العنف في تصوير الهول هنا، وعلى الرغم من الجمال الذي لا شك فيه في هذا التصوير، فإن الصورة السابقة أجمل وأسحر، وأدخل في المعاني الشعرية والصور الفنية.

والفرق بينهما، هو الفرق بين صورة الخائف تضطرب أوصاله، وترتجف أعضاؤه، وصورة الخائف لا يترك له الفزع قدرة على اضطراب الأوصال وارتجاف الأعضاء.

والفرق بينهما أن الثانية مجرد تصوير للفزع المذهل، بينما تزيد الأولى معاني الطاعة الذليلة الذاهلة «مهطعين مقنعي رءوسهم» ومعاني الرهبة الصامتة الواجمة «لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء»

٥ — ومن هذا النحو قوله في يوم الحشر: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»

فما يوجد أخصر من هذا، ولا أدق، في بيان انشغال القلب والفكر، بالهم الحاضر القاهر حتى لا موضع لسواه، ولا التفات لغيره في هذا الزحام.

٦ — ومن الصور الخفية الصامتة : « هذان خصمان اختصموا في ربهم ، فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق »
والروح الفنية تهبط في هذه عن سابقتها معاً ، ولكنها ترتفع فتكاد توازيهما عند « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » لأن الصورة هنا تحيا وتتحرك ، فتغذي الخيال
٧ — وهناك صور أقل قيمة من هذه المثل جميعاً ، لأنها موكلة بالخيال الساذج ، وذات وجه واحد ، أو حركة واحدة ، يستجليها الخيال في لمحة واحدة . ومثال ذلك
« القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش »
أو « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » . أو « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميما » . وفي هذا المثال الاخير ارتفاع عند : « ولا يسأل حميم حميما » يمت بصلة إلى « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » ولكنه لا يبلغ مبلغه من الناحية الفنية
وفيما عدا هذا ، : منظر واحد تعرضه كل آية ، لا يحوج الخيال إلى أكثر من لمحة واحدة وهذا هو الفارق بين المثل الأخير والأمثلة الأولى المركبة المتحركة

٢ — قصص فني

في القرآن قصص كثير ؛ وهو تارة قصص تاريخي ، وتارة قصص تمثيلي ، (لتمثيل حالة ولو لم تقع) وتارة يصلح لهذا ويصلح لذاك (١) ومن أمثلة القسم الاول : قصص ابرهيم وموسى وعيسى ونوح ، وقصص عاد وثمود ومدين .. الخ ومن أمثلة القسم الثاني : قصة الرجلين « جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ... الخ » في سورة الكهف
ومن أمثلة القسم الثالث : قصة ابليس وآدم ، وقصة ابني آدم
على أن أكمل ما يمثل به للقصص الفني في القرآن ، هو قصة مريم ، وذلك رغم أن قصة يوسف مثلا أطول وأكثر مناظر . ولكن الأولى أحيا وأدخل في الحبكة الروائية ، وفيها مجال أوسع لشتى الانفعالات النفسية ، وهي تحوي مشاهد مدهشة لرواية « سينمائية » تتخللها فجوات تترك للخيال الخصب مجالا متسعاً للتصور وتكملة الحلقات المحذوفة بمهارة عجيبة
وتبدأ القصة هكذا : « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سويا ، قالت : إني أعوذ بالرحمن

(١) يتسع هذا الموضوع لبحث مطول خاص بالقصة في القرآن

منك إن كنت تقيا» وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة العذراء ، الطيبة القلب ، وهي من أسرة صالحة ذات تقاليد، عارية أو شبه عارية ، يفجؤها رجل . . . وهذا هو اللغز الأول من القصة

« قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ! قالت : أنى يكون لي غلام ، ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بغيا ؟ »

ثم ليتمثل الخيال مرة أخرى مقدار الفزع والخجل الذي يعتور هذه الفتاة ، وذلك الرجل الغريب يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو أنه يريد أن يهب لها « غلاماً » . ثم تدركها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها : «أنى يكون لي غلامٌ ، ولم يمسسني بشرٌ ، ولم أكُ بغيا» هكذا صراحة ! وبالألفاظ المكشوفة ، فهي والرجل في خلوة ، والغرض من مباغتته لها قد صار واضحاً ، وما يخفف من وقعه أن يقول لها : « إنما أنا رسول ربك » فهي جديرة أن تكذب هذا القول ، الذي لا يقوم عليه دليل لديها ، وأن تعتصم بالشجاعة والصراحة ، فالحياء لا يجدي في مثل هذه الأحوال ، ومن هنا كانت صراحتها في ألفاظ ردها ، في لهجتها

« قال : كذلك قال ربك : هو عليَّ هيِّنٌ ، ولنجعله آيةً للناس ، ورحمةً منا ، وكان أمراً مقضيا » !

ثم ماذا ؟ هنا نجد في القصة فجوة فنية كبيرة ، تدع للخيال أن ينطلق ، وأن يتصور عشرات الصور والأوضاع ، التي تناسب ما انعكس في نفسه من المواقف الأولى

ثم تمضي قصتنا في طريقها بعد هذه الفجوة العميقة :

«فحملته ، فانتبذت به مكاناً قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت : يا ليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسيا » . يا ألله . يا للمسكينة !

لئن كانت في الموقف الأول تواجه الأخلاق والحصانة ، بينها وبين نفسها ، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع ، وهي الآن تواجه الألم الجسمي الحاد ، تمثله في دقة «فأجاءها المخاض» بجانب ما تتوقعه من الفضيحة ، وبجانب هذا كله حيرة العذراء في أول مخاض وهي وحيدة جاهلة بكل ما يتعلق بهذه الناحية من تحضير وتدبير

كل أولئك يجتمع على فتاة ، لم تك بغيا ، كما قالت هي بحق . فأي هول ، وأي ألم ، وأي عذاب ، يتمثل في قولها : « ياليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسيًّا »

« فناداها من تحتها ألاّ تحزني ، قد جعل ربك تحتك سريًّا ، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًّا ، فكلي واشربي وقرّي عيناً ، فإمّا ترينّ من البشر أحداً ، فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا »

وسواء كان « عيسى » هو الذي ناداها ، أو كان الروح الأمين ، أو كان ذلك هاجساً

تحس في ضميرها ، لحسبته طيفاً مسموعاً ... (وهو مايقع كثيراً للانسان في مثل هذه الحالات التي يغفل فيها العقل الواعي ، فيتنبه العقل الباطن ويتصرف). سواء كان هذا أو ذاك أو ذلك لقد هدأ من روعها ، وطمأن قليلاً من رجفتها ، وأعادها الى التفكير العملي في مواجهة الموقف

وهذا التحليل لم تذكره القصة ، لأنها تركت للخيال تكملة المقام

ثم نحس بفجوة صغيرة بين هذا الحديث ، وبين ذهابها الى القرية ، فلا ندري كم مرة من الزمان ، ولا كم تتابع من الافكار . وبعدها

« فأتت به قومها تحمله ! قالوا : يامريم ، لقد جئت شيئاً فريًّا ، يا أخت هرون !. ماكان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيًّا »

وهنا يعود للقصة عنفها ، وللموقف رجته . فها هي ذي تواجه قومها بطفل . وهاهم أولاء لا يقتصدون في تأنيبها ، والتهكم بها ؛ وتذكيرها بخروجها على تقاليد أسرتها « يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغياً »

فيا لها من مسكينة !

« فأشارت إليه ! قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبيا » ؟

ولعل التهكم الذي بدا في حركتهم ونظراتهم ، حين أشارت إليه أضعاف ما حملته ألفاظهم واستنكارهم « كيف نكلم من كان في المهد صبيا ؟ »

وإن المسكينة لتحتمل الموقف ، وتواجه التهكم ، وإنك لتسمعها من وراء سطور القصة ، تردد مرة ومرة : « يا ليتني مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسيا »

وما أنقذها من هذا الهول ، إلاّ أن :

« قال : إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبيًّا ، وجعلني مباركاً أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا ، وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيًّا ، والسلام عليّ يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيًّا »

وهنا يسدل الستار على ذلك الموقف الرهيب العجيب ، والأفئدة ترجف في الصدور ، والأعين تدمع للانتصار ، والأيدي تدوي بالتصفيق

وفي هذا الوقت تسمع في لهجة التقرير ، في أنسب فرصة للاقناع والاقتناع :

« ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه . إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون »

إنها قصة فنية ، ذات مناظر مشوقة ، وفيها متعة للذهن والخيال ، ومجال للتحليل النفسي ، والنظرات الفلسفية [البقية في العدد القادم]